

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الذي أمره بتأسيس مساجد التقوى وقواعد الدين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم من المؤمنين.

أما بعد : فقد سئل كاتبه - عفا الله عنه - عبد الرحمن بن محمد النيفي الجعفري، عن الزواوي والربط والقباب، أهي من البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه وتعمر، ومن حرمت الله التي تعظم، أم من مساجد الضرار التي ينبغي أن تحرق أو تهدم أو تهجر؟ وقد ذهب كثير ممن ينسب إلى العلم إلى الأول.

فأجيبوا مأجورين، وبينوا بالدليل ما عليه المعول، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى^(١).

نص الجواب : وبعد السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، نجيبكم بما نرجو من الله أن يكون هو الصواب.

وهو: أن القول الأول مهجور ومنبوذ بلا ارتياب، وهو ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وقول السلف وفعلهم، وفتوى علماء الإسلام.

- أما الكتاب :

فقد قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [التوبة: ١٧] لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا الْمَسْجِدُ الَّذِي تَقُومُونَ فِيهِ مِنَ الْأَمْطَرِيزِ ۗ أَقَمْنَا سِسَّ بَيْتِنَا عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنَ أَسَسَ بَيْتِنَا عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارُ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ لَا يَزَالُ بُدِّئَهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ [التوبة: ١١٠-١٠٧].

(١) كلمة (تعالى) لم ترد في شيء من طرق أحاديث السلام.

وقال : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال : ﴿ وَلَا تَتَزَعُّوا فْتَفَشَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٦٥].

وقال : ﴿ إِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ تُرِيبُنَّهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، إلى غير ذلك من الآيات البينات.

أما وجه الاستدلال من الآيات التي بعد الأولى، فإن الله تعالى نهي عن التفرق والاختلاف والتنازع، وتفرقة الأديان، واتباع السبل غير الصراط المستقيم، وهذه الأشياء وسيلة إلى ما نهي الله عنه ونتيجة له، والوسيلة تعطى حكم المقصود، والنتيجة من المقدمات، وهذا المعنى المذكور في الآيات مشاهد في هذه الوسائل والنتيجات، حسب ما يوضح بعد.

وأما وجه الاستدلال بالآية الأولى فلعمومها، إذ الاسم الموصل بصلة عامة يعم بعمومها حتى يرد تخصيصه، فكل مسجد شارك مسجد سبب التزل في علة التفرقة والضرر كان كهو في الحكم، وهو وإن نزلت الآية في مسجد أبي عامر الراهب، فسبب التزل لا يخصص الدليل العام، كما هو معلوم في الأصول.

فإن قلت : إن دلالة الآية على ما زعمتموه من العموم يعارض بوجوه:

- الأول : ما يقال فرق بين ما بناه كافر مظهرًا به القرية ومخفيا الحوبة، وبين ما بناه مسلم يقصد به القرية ظاهرا وباطنا.

قلنا: لا فرق ؛ إذ المدار على وجود الضرر والتفرقة بالبناء المذكور، سواء كان من كافر أو مسلم - حسبما يأتي توضيحه -، وإلا يكون إضرار المسلم لغيره جائزا على بحثكم وهو باطل.

- الثاني: ما يقال أن الزواوي وما معها يذكر فيها اسم الله، ويصلى فيها، ويتلى فيها كتاب الله، فهي مساجد منفعة لا مساجد ضرار.

قيل لكم: هذا مردود بوجهين :

• الأول: أن ما نسبت لها من الخير لا يُجوز ضررها، ولا يرد النهي عنه.

• الثاني: أن مسجد الضرار نفسه كان فيه جميع ما ذكرتم، فلم يدفع عنه غضب الله ولا الهدم ولا التحريق.

- الثالث: ما يقال أن الزواوي وما معها يعمرها المؤمنون، دون سبب التزل.

فيقال عليه : وسبب التزل كذلك، عمره المؤمنون بعضهم ظاهرا، وبعضهم ظاهرا و باطنا، كما هو معلوم في التفسير، وقد حلفوا أنهم لم يريدوا إلا الحسن.

- الرابع: ما يقال إن الله كذبهم بقوله: ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٧].

قيل: لا ينهض لكم دليلا، إذ المدار على الضرر كما تقدم.

- الخامس: ما يقال إن عمار هذه البيوت مؤمنون ظاهرا وباطنا، وقد زعمتم أن عمار مسجد الضرار مختلفون.

الجواب من وجهين:

• الأول: هبهم كذلك، فالمدار على ما تقدم.

• الثاني: أن عمار تلك البيوت مؤمنو القلب والقالب، كما هو موجود فيهم ، وتأتي تنمة له.

- السادس: ما يقال قد اشترطت الآية في مسجد الضرار الضرر، والكفر والتفرقة، والإرصاد لمن حارب الله ورسوله، وأي هذه الأوصاف كلها في تلك البيوت؟ لو سلم أن فيها بعضها.

الجواب فيها من وجوه:

• الأول: ما يقال: أنها ليست شروطا كلها، لعموم الحكم، وإنما هي أوصاف القضية العين، والسبب اتصف به أصحابه.

• الثاني: جاء في الشريعة ما يدل على أن المدار فيها على وصف التفرقة والضرر، وهو يفيد عدم شرطية الجميع.

• الثالث: مما يدل على عدم اشتراط الجميع، كون التفرقة هي نفس الضرر، والكفران كان علة للفعل، كان من التفرقة أيضا، كما أن المدار عليها وإن كان وصفا لأصحاب القضية، فالمدار على ما عليه، ولا نفني وصفه عن بعض أصحاب تلك البيوت إن نفينا عن كلهم كما سيبدو أمامك، والإرصاد لمن حارب الله ورسوله، يقال عليه ما قيل في وصف الكفر قبله، حرفا بحرف.

وكثير ممن بنى تلك البيوت في الزمان الأول أُرصد بها من حارب الله ورسوله من الزنادقة ودعاة الباطنية.

- السابع: ما يقال الفرق موجود بنهي الله رسوله أن يقوم في ذلك المسجد أبدا دون أن ينهاه عن غيره.

فيقال عليه : هذا الفرق لا يتجه ولا يدل على خصوصية :

• أما أولا: فإن الله نهاه لوصفه بالضرر، فهو منهي عن اتصف بذلك الوصف إلى يوم القيامة، وإلا لزم أن يقوم رسول الله في مقام المعصية.

• وأما ثانيا: فإن تلك البيوت لم تكن مع هذا البيت في زمان رسول الله ﷺ حتى ينهى عنها أو يؤمر بها، وإنما كانت المؤسسة على التقوى وقد أمر أن يقوم بها.

• وأما ثالثا: فذلك المسجد هو أصل تلك البيوتات الضارة، كما أن المؤسسة على التقوى جمع لشتات المسلمين، وهو أصل للبيوتات التي اتصفت بوصفه.

- الثامن: لا يقال أن هذه زواوي ورُبط لا مساجد، فلا يعمرها حكم الآية، لأننا نقول : هي مساجد لغة وشرعا ، إذ المسجد هو ما خصص للقرية^(١)، كانت قرية في نفس الأمر أم لا، وقد قال الله : ﴿ لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ [الكهف: ٢١]، وقال رسول الله ﷺ : « اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ »^(٢). وتلك التسمية حادثة، مصطلح عليها، فلا تمنع إطلاق المسجد عليها.

(١) ورد في لسان العرب: «أن المسجد كل موضع يتعبد فيه» (٣/ ٢٠٤) مادة (مسجد).

(٢) رواه البخاري (ح ٥٤٧٨)، ومسلم (ح ٥٣١).

وأما السنّة :

فقد أمر رسول الله ﷺ بتحريق وهدم هذا المسجد^(١)، وتركه كناسه للمزابيل^(٢)، وقد هم ﷺ بتحريق بيوت الذين تخلفوا عن الجماعة^(٣) والجمعة^(٤) لولا نساؤهم وصبيانهم، ولا يستحق هذا إلا بمعصية الله، وربما كان ما فعل هؤلاء أخف مما فعل أولئك من الضرر بمساجد المسلمين،

(١) أخرج ابن مردويه كما في الدر المنثور، (٤/٢٨٦) وابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام، (٥/٢١١) عن أبي رهم كلثوم بن الحصين الغفاري - وكان من الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة - قال: أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذي أوان - بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار - وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا بنينا مسجدا لذي العلة، والحاجة، والليله الشاتية، والليله المطيرة، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه. قال: إني على جناح سفر، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم، فصلينا لكم فيه. فلما نزل بذي أوان أتاه خير المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أبا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي، وأخاه عاصم بن عدي أحد بني العجلان، فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله؛ فاهدماه، وحرقاه. فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف - وهم رهط مالك بن الدخشم - فقال مالك لمعن: أنظرنني حتى أخرج إليك، فدخل إلى أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه نارا، ثم خرجا يشندان وفيه أهله، وحرقاه، وهدماه، وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل.

(٢) روى الطبري بسنده عن خلف بن ياسين الكوفي قال: « رأيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله في القرآن، وفيه حجر يخرج منه الدخان وهو اليوم مزبلة » تفسير الطبري. (٣٣/١١).

(٣) عن أبي هريرة روى: أن رسول الله ﷺ فقد ناسا في بعض الصلوات، فقال: « لقد هممت أن أمر رجلا يصلي بالناس، ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأمر بهم فيحرقوا عليهم بحرم الحطب بيوتهم، ولو علم أحدهم أنه يجد عظما سمينا لشهدها - يعني: صلاة العشاء. رواه البخاري (ح ٦١٨)، ومسلم (ح ٦٥١).

(٤) عن عبد الله بن مسعود روى: أن النبي ﷺ قال لقوم يتخلفون عن الجمعة: « لقد هممت أن أمر رجلا بصلي بالناس، ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم ». رواه مسلم (ح ٥٦١).

وتفرقة جموعهم لو كان ذلك وحده، ولا سيما على القول بأن الجماعة سنة فقط، وقد قال رسول الله ﷺ: « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين »^(٥) الحديث. وهذه سنته وهديه.

وأما الإجماع :

فمعاذ الله أن يجوز مسلم كامل الإسلام، فضلا عن عالم، الإضرار بالمسلمين في دينهم وعقولهم، وأبدانهم وأموالهم، وأولادهم وأعراضهم، والإضرار بمساجدهم، وتفريق جماعتهم، ووحدهم في صلاتهم، ونحوها من الإضرار بدينهم.

وأما القياس :

فإذا هم رسول الله ﷺ بتحريق بيوت المتخلفين عن الجماعة، وقد قيل أنها سنة - لولا مراعاة الضعفاء، فكيف لا يجوز تحريق الأبنية الضارة بالمسلمين المتسببة في تخلفهم عن الجماعات، بل هو أحرى.

وأما أقوال السلف وأفعالهم فإليك البيان :

روى البغوي وغيره عن عطاء قال: لما فتح الله على عمر رضى الله عنه ويرى معه الناس في زمانه أن المسجد الضار بالمسجد مسجد ضرار، ولو لم يروا ذلك لأنكر عليه.

وقد ذكر البغوي وغيره: أن بني عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء، أتوا عمر بن الخطاب في خلافته ليأذن لمجمع بن حارثة فيؤمهم في مسجدهم، فقال: لا ونعمة عين، أليس بإمام مسجد الضرار؟

فقال له مجمع: يا أمير المؤمنين، لا تعجل علي، فوالله لقد صليت فيه، وإني لا أعلم ما أضمروا عليه، ولو علمت ما صليت معهم فيه، كنت غلاما قارئاً للقرآن، وكانوا شيوخا لا يقرءون القرآن، فصليت ولا أحسب إلا أنهم يتقربون إلى الله تعالى، ولم أعلم ما في أنفسهم، فعذر عمر وصدقته،

(٤) صحيح: رواه أحمد في المسند، (ح ١٧١٤٤) و(ح ١٧١٤٥)، ط. الرسالة، وابو داود (ح ٤٦٠٧)، والترمذي (ح ٢٦٧٦)، وابن ماجه في المقدمة (ح ٤٢)، والحاكم في المستدرک، (١/١٧٤) وغيرهم، وقال الترمذي: حسن صحيح. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وأمره بالصلاة في مسجد قباء. انتهى^(٦).

ففيه دليل لما قدمناه، من أن أهل مسجد الضرار لم يكونوا كلهم كفارا، وقد ذكر ابن القيم وغيره أن عمر رضى الله عنه حرق قرية بكاملها يباع فيها الخمر^(٧)، وحرق حانوت رويشد الثقفي وسماه فويسقا، وحرق قصر سعد عليه لما احتجب فيه عن الرعية^(٨).

وإذا حرق عمر هذه الأماكن لمعصية الله، كان لا فرق عنده وعند غيره بين محل المعصية في الحكم للاتحاد في العلة، وقد أمر عبد الله بن مسعود بهدم مسجد خارج الكوفة بناه عمرو بن عتبة^(٩)، وما ذلك إلا لتفريق الجماعة ..

(١) تفسير البغوي، (٢/٣٢٧) عند تفسير الآية السابقة في مسجد الضرار.

(٢) ذكر ذلك عنه ابن القيم كما في زاد المعاد (٣/٥٧١)، و«إعلام الموقعين، (٤٧٣/٤)، وإغاثة اللهفان، (١/١٣٣)، و بدائع الفوائد (ج ٣/٦٧٦)، والذي وجدته بعد البحث إنما هو عن علي رضى الله عنه.

(٣) سنه ضعيف جدا: رواه الطبري في تاريخه (٢/٤٧٩) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٨١/٥٥)، وفي سنه سيف بن عمر صاحب كتاب الفتوح والردة وهو متروك، انظر: ميزان الاعتدال (٣/٣٥٣).

(٤) انظر: المحلى، لابن حزم (٤/٤٥).

من كتاب / حكم الكتاب والسنة في هدم الزوايا والقباب
للعلامة عبد الرحمن النتيقي البيضاوي المغربي رحمه الله تعالى

بِحَمْدِ اللَّهِ

حُكْمُ السُّنَّةِ وَالْكِتَابِ

فِي هَدْمِ

الزَّوَايَا وَالْقِبَابِ



فَضِيلَةُ السُّنَّةِ وَالْعِلْمِ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَغْرِبِيُّ

(الترغيب والترغيب سنة ١٣٨٥ هـ)